



تَعِيشُ لَهَا الْجَهَادَةُ

من أعظم ما يحفظ إيمانَ المسلم بسنة نبيه ﷺ أن يكون عارفاً بكيفية حفظ السنة، وذلك أن أكثر المنكرين والمشككين يدفعهم لذلك عدم الإيمان بثبوتها، والطعن في الطريق الموصل إليها، لا إنكار أصل حجية السنة.

وهذا يؤكد على ضرورة العناية بتوضيح هذا المنهج لئلا يتسلل من الجهل به الشك في أصل السنة وعدم الإيمان بها، فمعرفة هذا المنهج هو من أعظم الدلائل على حفظ السنة.

فمن يطلع على منهج حفظ السنّة يعرف أنّ الكشف عن الكدّايين والوضّاعين، ومعرفة الضعفاء والمتروكين، والكشف عن الأغلاط الظاهرة هو أمرٌ ميسورٌ، وأنّ طرائق هذا المنهج العظيم قد تجاوزت هذا المستوى إلى أمور أدقّ بكثير، **كالكشف عن أغلاط الحفاظ الثقات، وملاحظة أوهام الأئمة الأثبات.**

ومنهج حفظ السُّنة لا يقتصر على تحديد كون الراوي ثقة أو كذابًا، بل يُدقق في وزن هذه الصفة في كل راوٍ، فمن الرواة من هو ثقة يُقبل حديثه مطلقًا، ومنهم من يُقبل حديثه إذا تابعه غيره، أو لا يُقبل مطلقًا، حتى من يُقبل مطلقًا يميزون في روايته، فلا يقبلونه مطلقًا بل بشرط أن لا يُخالف من هو أوثق منه.

كما أنهم يدققون أكثر فيجعلون الراوي مقبول الرواية إذا كان يروي عن علماء بلدة معينة، أو يروي عن شيخ معين، أو يقبلون رواية تلميذ معين عنه أو بلدة عنه، أو فترة زمنية معينة، فيعرفون أنه قد كبر واختلط فلا يقبلون من روى عنه بعد ذلك.

ويدققون أيضًا في صفة الرواية هل روى من حفظه أم من كتابه؟ كما يشنون على بعض الرواة في إمامتهم وثقتهم في علم معين كالقراءات أو المغازي دون غيره.

كما يعقد المحدثون المقارنة بين الرواة، فيذكر حفظ الراوي مقارنة بغيره، فقد يكون مقبولا لكن ثمّ من هو أوثق منه، ولكل شيخ معروفٍ رواةٌ كثر، فيحددون في كل شيخ أوثق الرواة عنه.

ونحو هذه التفاصيل الدقيقة، والتي تبين الجهود العظيمة التي سُلِكت في سبيل حفظ السنّة، وعن احتياطهم الشديد في حفظ السنّة.

ومن منهجهم في حفظ السّنة **مقارنة المرويات**، فهم لا يعتمدون على الراوي ثم يحكمون على بقية مروياته، بل يفحصون مروياته ثم يعرفون بعد ذلك حقيقة هذا الراوي ومستوى ضبطه، والأغلاط التي تأتي عليه، وسببها، ثم يحكمون بعد ذلك على الراوي برؤية مفصلة، وقد يحكمون على الراوي بالكذب أو سوء الحفظ بسبب المتن الذي رواه، **فهم ينطلقون من الرواية إلى الراوي وليس العكس.**

ولهذا كانوا يجمعون طرق الروايات حتى يختبر بعضها ببعض، وبفضل هذه الأداة تمكّن أئمة النقد من وضع ضوابط مفصّلة للرواة، فتجد عدّة ضوابط متعلقة براوٍ واحد فقط.

ومن آثار هذا المستوى الدقيق في ملاحقة المرويات **مسلك التدقيق في التفرد**، وهو أن يستقلَّ أحد الرواة بحديث معين فلا يُعرف إلا من طريقه، أو يتفرد في سند فيروي عن شيخ معين، أو يتفرد في زيادة في المتن أو الإسناد.

لأنَّ هذا التفرد مظنة الغلط والوهم، وهذا التفرد هو من الدلائل التي يطعن بسببها في الراوي ويتوقف في توثيقه، وهي من مداخل العلل القاذحة في الحديث.

ومن روائع هذا المنهج أنه يسير على مسلك واقعي، فهو يرصد حالة الرواية، ويتابع الرواية، ثم يضع الحلول للمشكلات التفصيلية التي تعتري طريق الاحتياط في توثيق الرواية، فهو منهج حيٌّ متجدد، لا يقتصر على وضع القواعد النظرية الكلية التي تحفظ ثبوت الرواية، بل يتابع مسيرة الرواية بكافة تفاصيلها.

فلا بد من العناية بمعرفة تفاصيل منهج العلماء في حفظ السنة، ومعالمه الكلية لأمرين:

٢

إزالة الشكوك والوساوس التي يتذرّع بها من يشك في ثبوت السنّة، وإلزامهم بأن يتركوا التمسك بالتفكير العقلي المجرد.

١

تثبيت القلوب، وتحقيق الطمأنينة لكل مؤمن، فإذا عرف الخطوط العريضة لحفظ السنّة أدرك أنّ هذه السنّة قد حفظها الله تعالى.

وربما قال قائل: إنَّ حفظ السنَّة كان متجهًا إلى السند دون المتن، فلم يكن للمحدثين عناية بالمتون عنايتهم بالأسانيد. وهي شبهة مشهورة نقضها من وجهين:

الوجه الأول

بيان عظمة الإسناد. فلو صحَّ هذا الاعتراض فهو في الحقيقة من محاسن هذا المنهج وليس من عيوبه؛ لأنَّ أهم ما يجب الإجابة عنه هو صحة ثبوت الخبر عن النبي ﷺ، وهذا يجيب عنه الإسناد، فلو قصَّروا في حفظ الإسناد لضاعت السُّنَّة، ولما انتفعنا بشيء من هدي الرسول ﷺ، ولأمكن نسبة كلِّ متن صحيح المعنى إلى النبي ﷺ! فأعظم ما يجب العناية به هو العناية بالسند، وفحص الرجال، والنظر في اتصال الإسناد. فبِحفظ هذه الأسانيد حُفِظَت سُنَّة النبي ﷺ.

الوجه الثاني

أنَّ المحدثين كانوا حريصين على المتن لم يهملوها، بل كانوا ينظرون إلى المتن والإسناد جميعًا، غير أنَّ تركيزهم على الإسناد كان أعظم لأنه هو الأخطر، والأعقد، وهو محل العوارض والمتغيرات، بخلاف المتن فأمرها كان أيسر، كما أنَّ عنايتهم بالإسناد هي التي سهلت عليهم طريق نقد المتن، والكشف عن دقائق الغلط فيها مما لا يمكن أن يحصل بالتفكير العقلي المحض.

كما أنَّهم يعتنون بغريب المتن، والاضطراب في المتن، والاختلاف في وصله ورفع، والإدراج فيه، والتصحيح، والمخالفة فيه لغيره، وغيرها من مباحث دقيقة معروفة في علم مصطلح الحديث.

إذا كانوا كذلك فمن أين أتى إشكال العناية بالسند دون المتن؟

الحق أنه أتى من التأثير بنقد المستشرقين للمنهج النقدي لهذه الأمة بأنهم يعتنون بالسند بخلاف المتن، وطريقة نقدهم للمتون قائمة على الطريقة الكسولة بإثارة أدنى اعتراض على أي متنٍ بمخالفة الكتاب أو العقل أو المصلحة أو التأثير بالإسرائيليات ونحو ذلك. ولهذا فالطريقة الموضوعية هي في الجمع بين النصوص، وإعمال الأدلة كلها، والتوفيق بين الدلائل، وليس في ضرب بعضها ببعض بلا سبب.

فالإغراق في نقد المتون يقصر جدًّا في هذا الجمع، فمع أدنى توهم لوجود تعارض، تُرد المتون الحديشية، بل قد يكون ما ردّه من حديث بسبب معنى معيّن موجود بعينه في القرآن ، فيلزمه أن يرد آيات القرآن أيضًا.

وطريقة المحدثين تقوم على نظرٍ عقلي حقيقي، مستند إلى الواقع والتجربة، قائم على خبرة وأهلية، وتعتني بما هو مُشكل من المتون حقًّا، وبعض هذا النقد لا يُحسنه إلا هم.

ويظهر جمال منهج النقد عند هذه الأمة بمقارنته بما يشابه من مناهج النقد والحفظ في الأمم الأخرى.

وقد اجتمعت عوامل ساهمت في تقوية حفظ السنة في هذه الأمة، منها:

الجانب الاعتقادي المتعلق بالحرص على معرفة سنة النبي ﷺ، فهو هدي الرسول ﷺ الذي يجب عليهم اتباعه، وكانوا يحرصون على الاقتداء به في دينهم، ويبحثون عن مفصل هديه، ويرجون الرحمة والنجاة بذلك.

توارد طبقاتٍ متتابعة على هذا الحفظ، فلم يقتصر حفظ السنة على طبقةٍ محدّدةٍ من الأمة، بل هو جهدٌ متوارث متراكم، يُشدُّ أوله آخره، وتجتهد كلُّ طبقةٍ في حفظ السنة والاحتياط لها ودفع الكذب والغلط عنها بحسب حالها.

انطلاق الحفظ من اللحظة الأولى من زمن النبي ﷺ،
فنقلة السنّة هم الصحابة رضي الله عنهم، فقد كانوا
حريصين على معرفة تفاصيل هدي النبي ﷺ في حياته،
ثم حرصوا بعد ذلك على نقل أقواله وأفعاله وهديه
وسيرته، وتلقاها منهم التابعون، فلم يكن ثمّ انقطاع في
سنّة النبي ﷺ، بل كانت العناية التامة، والحرص الشديد،
منذ اللحظة الأولى في حياته ﷺ وبعد وفاته مباشرة.

الاشتہارُ العظیم والشیوعُ الکبیر، فحفظ السنّة لم یکن
ہمّ فئۃ صغیرۃ من العلماء، أو طائفۃ منزویۃ عن الأمۃ،
بل کان وظیفۃ الأمۃ کلہا.

الجمع بین عدّة وسائل فی حفظ السنّة، فالسنّة كانت
تحفظ فی الصدور، وتکتب فی السطور، فاجتماع ہذین
الأمرین هو أقوى لحفظ السنّة وأکمل وأبعد عن
الاشتباہ. وقد کان نقل السنّة فی عصر الرسول ﷺ
وصحابتہ یغلب فیہ الحفظ مع وجود الكتابة لکنّہا كانت
قلیلۃ، ثم بدأ التوسع فی الكتابة بعد ذلك حتی أصبحت
غالبۃ.

واللافت أن الكتابة هي الشبهة الأساسية التي يستند إليها من يُشكّك في نقل السنّة، وهذا غلط من جهتين:



جعل الكتابة هي الدليل الوحيد على الحفظ، وهذا غلط ظاهر ومكابرة في المحسوسات، فالكتابة وسيلة للحفظ والضبط لكنها ليست الوسيلة الوحيدة.



إغفال طبيعة العصر الذي يتكلّمون عنه، فالكتاب قلّة، فلو أنّ السنّة اعتمدت على الكتابة فقط أو جعلته هو الغالب لكان هذا مثيراً للاشتباه وليس دليلاً على الحفظ، فكيف يعتمد جيل لم تكن الكتابة شائعة فيه على الكتابة فقط؟ فهذا يدل على وقوع تضليل في قصّة حفظ السنّة.



ومن اطلع على منهج حفظ السنة، وقرأ مسالك الأئمة فيه، والجهود التي بذلوها، والطرائق التي اعتمدوها يعلم أنّ هذا الحفظ لم يكن ليوجد لولا عناية ربانية توجّهه، ولطف إلهي يسيره حتى تحفظ به سُنّة النبي ﷺ، فحفظها من حفظ كتابه، وإلا فجهود البشر وعقولهم مهما خطتت فهي قاصرة عن صناعة هذا المنهج الفريد الذي حفظ سُنّة النبي ﷺ.